الأساس الفلسفي للأدب عند كامو

ترجمة محمد عبد الله الشفيقي

س : من الواضح أن فكرة الفن للفن تتنافى مع تفكيرك . وينطبق هذا أيضا على فكرة (الالتزام) بالصورة التي شاعت بها في الآونة الاخيرة . واذا نظرنا الى الالتزام بمعناه الحالي ، وجدنا أنه عبارة عن اخضاع فن الفنان لسياسة معينة . يبدو لي أن هناك شيئا أهم من ذلك كله ، شيئا يميز أعمالك ، وهو ما نستطيع أن نسميه بوضع هذه الاعمال داخل اطارها الزمني . هل هذا صحيح ؟ واذا كان الامر كذلك ، فكيف تصف هذه العملية ؟ .

جـ : أستطيع أن أتقبل تعبيرك : وضع العمل الفني داخل اطاره الزمني . غير أن هذا التعبير يصف على كل حال الفن الادبي برمته . أن كل كاتب يحاول أن يصب عواطف عصره داخل شكل . ولقد كانت هذه العواطف ، بالامس ، عبارة عن عاطفة الحب . واليوم نجد أن العواطف الهائلة ، عواطف الوحدة والحرية ، تمزق العالم . كان الحب يفضي في الماضي الى موت الفرد : غير أن عواطف اليوم الجماعية تجعلنا نغامر بفناء الكون كله . واليوم يريد الفن ، مثلما أراد بالامس ، أن ينقذ من الموت تلك الصورة الحية لعواطفنا وآلامنا .

ويبدو أن هذه المهمة أشق اليوم مما كانت بالامس . فمن الممكن أن يقع المرء في الحب من حين لآخر . والوقوع مرة واحدة يكفي على كل حال . ولكن ليس من الممكن أن يظل المرء يحارب في وقت فراغه . وهكذا يصبح فنان اليوم غير واقعي اذا هو ظل في برجه العاجي ، كما انه يصاب بالعقم اذا انفق وقته في الهرولة حول الحلبة السياسية . غير أن الطريق الشاق للفن الحق انما يتوسط الجانبين . ويبدو لي أن من واجب الكاتب أن يكون على علم تام بمآسي عصره ، وأن ينحاز الى جانب كلما استطاع الى الانحياز سبيلا ، أو كلما عرف كيف ينحاز . غير أن عليه ، في نفس الوقت ، أن يقف بعيدا بعض الشيء عن تاريخنا ، أو يحقق هذا الابتعاد من حين لآخر . ان كل عمل فني يفترض وجود مضمون واقعي وفنان يصوغ القالب . لذا ، اذا كان من واجب الفنان مشاركة عصره في نكباته ، فان عليه في الوقت نفسه أن ينتزع نفسه بعيدا لكي يستطيع أن يفكر في هذه النكبات ويعطيها شكلا . هذا الانتقال المستمر جيئة وذهابا ، هذا التوتر الذي تزداد خطورته بالتدريج ، هو مهمة فنان اليوم . وربما أدى هذا الى اختفاء الفنانين في القريب العاجل . وربما لن يختفوا . ان المسألة مسألة وقت ، وهي تحتاج الى قوة ، والى استاذية ، كما أنها تعتمد على الصدفة أيضا .

على كل ، يجب أن يكون الوضع هكذا . يبقى بعد ذلك الوضع الموجود بالفعل ، وتبقى بعد ذلك حقيقة أيامنا ، وهي حقيقة أقل روعة . والحقيقة الموجودة ، كما أراها أنا على الاقل ، هي أن الفنان يتلمس اليوم طريقه ، في الظلام ، تماما مثل رجل الشارع ، انه عاجز عن فصل نفسه عن بؤس العالم وهو يتحرق شوقا الى الوحدة والصمت ، ويحلم بالعدالة ، وهو مصدر للمظالم ، وهو يجد نفسه منساقا وراء عربة أضخم منه — بالرغم من أنه يظن أنه هو الذي يسوقها . وفي غمار هذه المغامرة المرهقة لا يسع الفنان الا أن ينشد العون عند الآخرين ، وكغيره ، سيجد العون في المتعة ، وفي النسيان ، كما سيجده في الصداقة والاعجاب . وكغيره أيضا ، سيجد العون في الامل . وفي حالتي أنا ، كنت أستمد الامل دائما من فكرة الاخصاب والاثمار . ومثل كثيرين غيري من الرجال ، سئمت النقد ، سئمت التحقير ، سئمت الكراهية — موجز القول أنني سئمت المذهب الذي لا يؤمن بأي شيء . من الضروري بالطبع أن تندد بما يجب التنديد به ، ولكن فلتفعل ذلك بسرعة وحزم . وفي الوقت نفسه يجب على المرء أن يسهب في مديح الاشياء التي ما زالت تستحق المديح . وعلى كل ، فهذا هو السبب الذي من أجله أصبح فنانا ، ذلك لان العمل الذي ينفي أشياء يؤكد — في نفس الوقت — أشياء ، ويعلن ولاءه لهذه الحياة البائسة الرائعة التي هي حياتنا .

س : عندما يتحدث رجل بالطريقة التي تتحدث بها ، فأنه لا يتحدث بالنيابة عن نفسه فقط . انه يتحدث لا محالة بالنيابة عن الآخرين . وهو يتحدث عن شيء . وبعبارة أخرى يتحدث بأسم أناس ، ومن أجل أناس ، يقدرون هذه القيم . من هم هؤلاء الناس ، وما هي هذه القيم ؟ .

جـ : أولا : انا أشعر بأنني متضامن مع الرجل العادي . وغدا قد يتمزق العالم شر ممزق . وفي غمار هذا الخطر الماثل فوق رؤوسنا ، هناك درس من دروس الحقيقة . وفي الوقت الذي نواجه فيه مثل هذا المستقبل تتكشف الرتب ، والالقاب ، والامجاد ، على حقيقتها : أنها مجرد نفثة عابرة من دخان . والشيء الوحيد المؤكد الذي يتبقى أمامنا هو ذلك العذاب المجرد ، الذي يشترك فيه الجميع ، والذي تختلط حذوره بجذور الامل العنيد .

وفي معارك عصرنا ، كنت أقف دائما في صف الغير ، في صف الذين لم ييأسوا أبدا من تحقيق شرف ما . غير أنني لم أستطيع أبدا أن أجعل نفسي أبصق ، مثل كثيرين ، على كلمة الشرف . لا شك أن هذا مرجعه أنني أدركت ، وأدرك ، أوجه ضعفي كبشر ، والافعال الظالمة التي ارتكبها ، ومرجعه أيضا أنني عرفت بالغريزة ، وما زلت أعرف ، أن

---

(١) أجرى هذا الحديث مع البير كامو بصدد الاساس الفلسفي للادب والفن عنده وقد نشر في مجلة Demain عدد ٢٤ شهر اكتوبر عام ١٩٥٧

الشرف (كالشفقة) فضيلة لا تخضع للمنطق ، فضيلة تحل محل العدالة ، والعقل ، اللذين صارا عاجزين . والرجل الذي تقوده دماؤه ، وتطرفه ، وقلبه الضعيف ، الى اكثر الاخطاء شيوعا ، مضطر الى الاعتماد على شيء ، لكي يصل الى النقطة التي يحترم عندها نفسه ، ومن ثم يحترم الآخرين . من أجل هذا أمقت الفضيلة الراضية عن نفسها وامقت اخلاقية المجتمع المرعبة ، ذلك لانها مثل الكراهية المطلقة ، تجعل الناس ييأسون ، وتمنعهم من تحمل مسئولية حياتهم بكل ما يثقلها من أخطاء ومجد .

والهدف الاوحد للفن ، ولحياة الانسان ، هو أن يضاعف من حصيلة الحرية والمسئولية الواجب توافرها لدى كل انسان ، ولدى العالم بأكمله . ولا يمكن أن يكون الهدف ، مهما كانت الظروف ، هو الاقلال من هذه الحرية أو كبتها ، حتى ولو مؤقتا . ان هناك اعمالا فنية تميل الى جعل الانسان يخضع لحكم خارجي ويتحول اليه . واعمال أخرى تميل الى اخضاعه لاقبح ما فيه: الرعب أو الكراهية. ومثل هذه الاعمال لا قيمة لها في نظري . وليس هناك اي عمل فني رائع يعتمد على الكراهية أو الاحتقار . بل أن الامر على عكس ذلك ، ليس هناك عمل فني حق لم يضاعف في النهاية من الحرية الداخلية لكل أمرىء عرف الحرية واحبها . نعم هذه هي الحرية التي امجدها ، وهي التي تعينني على السير في دروب الحياة . ان الفنان قد يحقق لعمله النجاح أو يجر عليه الفشل . وقد يحقق لحياته النجاح أو يجر عليها الفشل . ولكنه اذا استطاع أن يقول لنفسه انه استطاع في النهاية ، وبفضل جهده الطويل ، أن يرفع أو يقلل من أشكال القيود المتعددة التي تثقل كاهل الناس ، فانه محق في قوله ، هذا ، وفي مقدوره — الى حد ما — أن يصفح عن نفسه .

س : وراء كل عمل تجربة . قد تكون خاطفة ووحشية، كأن تكون صدمة عاطفية . أو قد تكون تجربة مطولة ، وهي في العادة تجربة الطفولة والمراهقة . وبالنسبة لك ، كانت التجربة الاولى : حوض البحر الابيض المتوسط والفقر . ولكن تأتي مع النضج تجارب أخرى تؤثر على انطباعات المرء الاولى ، وتلونها . ولقد اخذت هذه التجارب ، بالنسبة لك، شكل الحرب ، والمقاومة . الم تكن السنوات القليلة الماضية مصدر تجربة جديدة ايضا ؟ كيف كان ذلك ؟ وما هي التجربة التي اسفرت عنها هذه السنوات ؟

جـ : نعم ، كان هناك الشمس والفقر . ثم الرياضة ، ومنها تعلمت كل ما أعرفه الآن عن الاخلاق . وبعد ذلك الحرب والمقاومة . ونتج عن هذا اغراء بالكراهية . فأنت حين ترى احباءك من الاصدقاء والاقارب يقتلون لا تتعلم الكرم والسخاء . وكان علي أن اتغلب على اغراء الكراهية . واستطعت أن افعل ذلك . وتلك تجربة لها وزنها .

أما السنوات التي اعقبت التحرير ، فلقد تميزت ، بالنسبة لي ، بمعركة خضتها وحدي . أنا لا أنكر أنه كان لي أصدقاء ، أصدقاء ممتازون ، كرماء ، مخلصون ، أصدقاء يدب الدفء في قلبي عندما أفكر فيهم اليوم . غير أن القرارات التي كان يجب أن اتخذها ، والتي كانت أهم شيء بالنسبة لي — كقراري بتأليف كتاب « المتمرد » على سبيل المثال — فكانت قرارات وحيدة ، شاقة . كذلك كان الحال بالنسبة لما حدث بعد ذلك . غير أن التاريخ كان يتقدم في الوقت نفسه الى الامام . برلين الشرقية ، بوزنان ، بودابست ... الخرافة العملاقة التي انهارت . وتفجرت حقيقة معينة ، حقيقة ظلت طويلا مختفية . واذا كان

الحاضر ما زال ملطخا بالدم ، واذا ما كان المستقبل ما زال اسود اللون، الا اننا نعرف على الاقل أن عصر الايديولوجيات قد انتهى ، وان قوة المقاومة ، وقيمة الحرية ، تقدمان لنا اسبابا جديدة للعيش . هذه هي تجاربي . وعلى أن أضيف اليها بالطبع ، التجارب الذاتية المحض .

س : تحدثنا عن وضع العمل الفني داخل اطاره الزمني . غير أن العمل الفني ينتمي ايضا الى تيار فكري ، جغرافي ، بصورة ما . والذي يدهشني اننا نستطيع أن نقول عن اعمالك ، وأعمال عدد من الكتاب المعاصرين — وانا أشير بالذات الى سيلوني **Silone** واورتيخا اي خاسيت **Ortega Y Gasset** انها تنتمي الى أوروبا . هل تدرك ذلك ، وهل تبدو أوربا الفكرية حقيقية واقعة في نظرك .

جـ : نعم ، انني ادرك وجود أوربا فكرية ، واعتقد ان ذلك مقدمة لمستقبلنا السياسي . وكلما ازداد احساسي بفرنسيتي ، ازداد احساسي بأوروبيتي . ليس هناك ما هو مرتبط بالجزائر اكثر مني ، ومع ذلك أشعر ، بسهولة ، بأنني جزء من التراث الفرنسي . ونتيجة لهذا تعلمت تلقائيا ، مثلما يتعلم المرء كيف يتنفس ، أن حب الانسان لوطنه يستطيع أن يمتد ، دون أن يموت هذا الحب . وأخيرا ، انني أشعر بأنني أوروبي لا لشيء الا لانني احب وطني . خذ مثلا أورتيخا اي خاسيت ، الذي كنت مصيبا في الاشارة اليه . ربما كان أعظم كاتب أوروبي بعد نيتشه، ومع ذلك من الصعب ان يكون هناك من هو اكثر التصاقا منه بأسبانيا . وسيلوني يتحدث الى أوروبا قاطبة ، وانني لاشعر بأني ملتصق به لا لشيء الا لانه متأصل ، بصورة غير معقولة ، في تراثه الوطني بل والاقليمي .

الوحدة والتنوع ، ولا شيء بدون الآخر أبدا — اليس هذا هو سر أوروبا ؟ لقد عاشت أوروبا على متناقضاتها ، وازدهرت على خلافاتها ، واستطاعت بذلك أن تتخطى قيودها ، فخلقت مدنية يعتمد عليها العالم كله في الوقت الذي يعلن فيه رفضه لها . من أجل هذا لا أومن بأوروبا التي تتوحد تحت وطأة ايديولوجية معينة ، أو هيمنة طائفة من الخبراء الفنيين الذين يتجاهلون أوجه الاختلاف . كما انني لا أومن بأوروبا تخضع للاختلافات فقط ، اي تخضع لفوضى قومية معادية .

واذا لم تدمر النار أوروبا ، فانها ستعيش ، وستنضم اليها روسيا في الوقت المناسب، بما فيها من أوجه اختلاف تميزها عن غيرها . ان المستر خروشوف لا يكفي لكي ينسيني ما يربطنا بتولستوي ، وديستويفسكي ، وشعبهما . غير أن الحرب تتهدد هذا المستقبل . دعني أكرر : هذا هو رهاننا . غير أنه أحد المراهنات القليلة التي تستحق أن يقبلها المرء .

س : أنت كاتب فرنسي جزائري . وهذا في الواقع ما أكدته عندما منحت جائزة نوبل . ولكنك عندما تدرك وجودك كرجل فرنسي من الجزائر، فمن المؤكد أنك لا تعتبر نفسك معارضا للجزائريين الذين ليسوا من أصل فرنسي . البير كامي : أيها الفرنسي القادم من الجزائر ، الا يعني هذا أنك متضامن مع الجزائريين ؟ كيف يحدث هذا ، وكيف تتمشى الجزائر مع أوروبا الروحية التي تشعر أيضا بأنك تنتمي اليها ؟ .

جـ : لم يكن دوري في الجزائر ، ولن يكون أبدا ، ان أبث الفرقة ، وانما أن أستغل كل ما أملك من وسائل لتحقيق الوحدة . انني متضامن مع الجميع ، الفرنسي منهم والعربي ، ممن يقاسون اليوم نكبات بلادي . غير أنني لا أستطيع أن أبني وحدي ، ومن جديد ، شيئا يصر كثيرون على تحطيمه . لقد فعلت كل ما في مكنتي . وسأبدأ مرة أخرى عندما تحين فرصة ثانية لاعادة خلق جزائر متحررة من الكراهية ومن كافة أشكال العنصرية . ولكن ، لنقصر حديثنا على المجال الذي اخترناه، كل ما اريده هو أن أذكرك بأننا استطعنا ـ بفضل التقاء سخي وتضامن فعلي ـ أن نخلق مجتمعا من الكتاب الجزائريين ، كتاب فرنسيين وكتاب عرب . وهذا المجتمع ينقسم الى قسمين بصفة مؤقتة . غير أن رجالا مثل : معمري والديب ، وكثيرين غيرهما قد احتلوا مكانهم بين الكتاب الاوروبيين . ومهما يكن من أمر المستقبل ، ومهما بدا أسود في نظري ، الا أنني على يقين من أن هذا أمر لا ينسى .

س : كثيرا ما استخدمت كلمة البعث وأنت تتحدث عن الثقافة الفرنسية . ولا يقتصر الامر على رغبتك في هذا البعث ، وانما يبدو أحيانا أنك تلمح بوادره الاولى . فماذا سيكون شكل هذا البعث ؟ وما هي علاماته ؟

جـ : من أول علاماته ذلك التغير في الاجيال ، وهو تغير يتم على جميع المستويات ، ومن العلامات الاخرى ذلك الطابع الذي يتميز به الجيل الجديد ، وعدم استعداد الناس ـ بصورة متزايدة ـ للايمان بالشعارات أو الايديولوجيات ، والعودة الى القيم الاقل تظاهرا والاكثر واقعية .

ان أوروبا (وفرنسا) لم تتخلصا من الخمسين سنة التي ساد فيها مذهب العدم . ولكن ما أن يبدأ الناس في رفض الغموض الذي يعتمد عليه هذا المذهب ، حتى تلوح بوارق الامل . والمشكلة كلها هي أن نعرف ما اذا كنا سنقدر أو نعجز عن التطور بأسرع مما يتحرك الصاروخ الذي يحمل رأسا نوويا . غير أن ثمار الروح ـ لسوء الحظ ـ أبطأ في نضجها من الصواريخ عابرة القارات . ولكن نظرا لان قيام حرب ذرية سيجرد أي مستقبل من معناه ، فان هذا يعطينا حرية التصرف المطلق . فليس أمامنا ما نخسره ، اللهم الا أن نخسر كل شيء . لذا دعنا نتجه قدما الى الامام . هذا هو رهان جيلنا . فاذا فشلنا ، فان من الافضل لنا أن نكون قد وقفنا في صف من اختاروا الحياة بدلا من الوقوف في صف من يدمرون .

س : هناك ، في كافة مؤلفاتك ، تعايش بين التشاؤم الفلسفي وبين شيء لا نسميه تفاؤلا وانما هو نوع من انواع الثقة . انها ثقة بالروح أكثر مما هي ثقة بالانسان ، وبالطبيعة أكثر مما هي ثقة بالكون ، وبالتصرف أكثر مما هي ثقة بنتائج هذا التصرف . انه موقف المتمرد ، ذلك لان قيمة التمرد تعوضنا عن عبث العالم ـ هل تعتقد أن في استطاعة الكثيرين أن يقفوا هذا الموقف ، أم أنه كتبت عليه أن يظل وقفا على حفنة من الحكماء ؟

جـ : أصحيح أن هذا الموقف وقف على الخاصة ؟ أفلا يعيش رجال اليوم بهذه الطريقة، وهم الذين يتعرضون للتهديد ومع ذلك يقاومون ؟ اننا نختنق ، ومع ذلك نعيش ، ونحن نظن أننا نموت من الحزن ، ومع ذلك تنتصر الحياة . ان وجوه عصرنا ، تلك الوجوه التي نقابلها في الطرقات ، تدل على أنها تعرف . ووجه الاختلاف الوحيد هو أن البعض يبدون مزيدا من الشجاعة . أضف الى هذا أنه ليس أمامنا مجال للاختيار . أما أن نقف هذا الموقف أو نواجه العدم . واذا تحتم على مجتمعاتنا أن تقذف بنفسها في أتون العدم ، سواء أكان هذا العدم استبداديا أم برجوازيا ، فان على الذين يرفضون الاستسلام أن يقفوا جانبا ، وأن يقبلوا هذا الوقوف جانبا . غير أن عليهم ، وهم في مكانهم هذا ، أن يبذلوا ما في مقدورهم لاداء الواجب ، حتى يستطيع الجميع،من جديد، ان يعيشوا حياةالجميع .

وانا لم ارد شخصيا ان اقف جانبا . غير ان رجل اليوم يواجه نوعا من انواع الوحدة ، ولا شك أن هذا هو اقسى ما يفرضه علينا عصرنا . صدقني ، انني اشعر بعبء هذا يثقل كاهلي . ومع ذلك ، حرى بي الا ارغب في تغيير العهد ، ذلك لاني ادرك في نفس الوقت عظمة عهدنا ، واحترمه . اضف الى هذا انني كنت أؤمن دائما بان اعظم قدر من الخطر ينطوي على اعظم قدر من الامل .

س : لا يسع المرء الا ان يتناول اليوم موضوعات معينة. واخطر هذه الموضوعات تلك المشكلة التي تواجه الجميع : في غمرة المعارك التي تشطر العالم اليوم ـ هل يجب علينا حقا ان نتناسى اخطاء جانب لكي نحارب اخطاء اشد في الجانب الاخر ؟؟

ج : قبل ان يموت ريتشارد هيلري Richard Hillary في أحد معارك الحرب الاخيرة ، عثر على العبارة التي تلخص هذا الموقف الحرج ، اذ قال : (لقد كنا نحارب اكذوبة في سبيل نصف حقيقة) وكان يظن انه يعبر بذلك عن فكرة غاية في التشاؤم . غير ان المرء قد يضطر الى محاربة اكذوبة في سبيل ربع حقيقة . هذا موقفنا في الوقت الحاضر . غير أن ربع الحقيقة الذي يحتويه المجتمع الغربي شيء اسمه الحرية . والحرية هي الطريق ، والطريق الوحيد ، نحو الكمال ، وبدون الحرية تستطيع الصناعة الثقيلة ان تبلغ حد الكمال ، غير أن العدالة او الحقيقة ستموت . وحرى باحداث تاريخنا، من برلين الى بودابست، **ان تقنعنا بذلك . ومهما يكن الامر فان هذا هو السبب الذي** يجعلني اختار . ولقد قلت في هذا المجال انه ليس هناك من الشرور التي يدعى الاستبداد علاجها ما هو اسوأ من الاستبداد نفسه . ولم اتزحزح عن رأيي هذا . بل على العكس من ذلك ، مضت عشرون سنة من تاريخنا القاسي ، حاولت خلالها ان اتقبل كل تجربة تأتي بها ، فاذا بالحرية تبدو لي الخير الاسمى الذي يعلو على كل خير اخر ، سواء للافراد او المجتمعات ، سواء في ميدان العمل او في ميدان الثقافة .

ترجمة : محمد عبدالله الشفقي